

تشبه سكانها... والصراعات العربية أضفت عليها كآبة

المدن تنمو وتشيخ مثل البشر

□ القاهرة - أمينة خيرى

■ قل لي في أي المدن تعيش أقل لك الكثير عن تركيبتك النفسية والاجتماعية والصحية والإنسانية. وفي العالم العربي، حيث يعيش نحو ثلثي العرب في مناطق موصفة باعتبارها حضارية، تبلغ المعاناة أقصاها، والمشكلات حداً أخذاً في التفاقم. صحيح أن الاختلافات كثيرة حيث مدن يمتد سكانها بمستويات معيشة مرتفعة تصل أحياناً إلى حد الفخامة، لكن الفروقات الشاسعة بين المدن وبعضها، وأحياناً في داخل المدينة الواحدة تلقي بظلال سلبية على المواطن والأسر العربية. وإذا أضفنا إلى ذلك ما لحق بمدن عربية على مدى السنوات الخمس الماضية بدءاً باستعمال ثورات التغيير مروراً بانسداد العنف وانتهاءً بالتمدد الداعشي، يمكن القول أن سكان المدن العربية في حاجة ماسة إلى تدخلات كثيرة بعضها أني لإقناع ما يمكن إنقاذه، وللمضي قدماً نحو أهداف التنمية المستقبلية في حال توافرت الإرادة وانتظر المستقبل.

مستقبل المدن العربية ليس واحداً، فوفق الدكتور جون كلوس المدير التنفيذي لمنظمة «هايبات» (منظمة الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية)، «هناك فروقات كبيرة بين المدن العربية حيث مدن بالغة الثراء وأخرى فقيرة. وهنا يمكن لمنظمتنا أن

تلعب دوراً لتنمية المدن الأفقر عبر برامج تنمية مستدامة تعد وفق حالة كل مدينة وحاجات سكانها».

إلا أن الحديث عن مشاريع مخصصة لسكان المدن التي لا تتمتع بموارد طبيعية وأخرى موجهة لسكان المدن الأوفر حظاً في الموارد، يتصاعد أمام السؤال عن مدن يعيش سكانها وأسرها تحت تهديد القصف المستمر أو هجوم جماعة إرهابية أو الوقوع ضحية لمعارك بين جيش نظامي وجماعة إرهابية. يقول كلوس متحدثاً إلى «الحياة» أثناء زيارته القاهرة: «في هذه الحالة يكون إحلال السلام أولوية حماية للسكان. أي دولة تدخل في صراع تتأخر عجلة التنمية فيها ٢٠ سنة على الأقل، حتى لو لم يستمر الصراع طويلاً».

ولأن ملايين السكان في مدن عربية يرزحون تحت حمى الصراع المتأجج، يؤكد كلوس أن المنظمة تساعد في ملفات مثل إسكان اللاجئين أو إعادة بناء ما تهدم لحين انتهاء الصراع، وبعدها يبدأ التعامل مع المدن من منطلق تنموي.

لكن ماذا تفعل «هايبات» في حال استمر الصراع سنوات طويلة وتعززت مدن لنهب آثارها ودمار منتهج، ما ينجم عنه تغيير شكل المدن فضلاً عن هالة الكآبة التي تطوقها؟ يوضح كلوس أن التغيير لا ينجم فقط عن السرقة والدمار، بل يحدث أيضاً بسبب الزيادة الكبيرة والفجائية في عدد السكان، إذ ينزح سكان المناطق المتضررة إلى مدن قادرة على تحمل قدر أكبر من الأعباء البشرية

لا سيما الحماية، ما يمثل عبئاً على جهود تنمية المدينة بعد انتهاء الصراع. ويضيف أن مهمة الدمج الاجتماعي للمهاجرين والنازحين الذين لا يعودون إلى مقار سكنهم فوراً بعد انتهاء الصراع تكون مكلفة ومتعبة جداً. ويتابع: «من الأفضل دائماً إبقاء المواطنين النازحين قريبين من بيوتهم الأصلية».

ويشمل عمل «هايبات» أيضاً اللاجئين عبر الحدود. ويشير كلوس إلى عمل المنظمة في مدن أردنية وتركية عدة حيث يوجد ملايين النازحين واللاجئين السوريين. ويشرح: «نتدخل كثيراً في إعداد المخيمات والتي نحاول أن نراعي فيها الحس المجتمعي قدر الإمكان».

وعن الحس عينه الذي يخشى بعضهم في الغرب أن يتغير ومعه شكل مدنهم بسبب موجات الهجرة العربية العارمة لا سيما من سورية والعراق، يلفت كلوس إلى أن هذا يحدث بالطبع، إلا أن المدن الأوروبية، مقارنة بالعربية، تملك قدرات واستعدادات وخبرات أكبر لاستقبال اللاجئين وإسكانهم ودمجهم في المجتمعات المضيفة.

ويشير كلوس إلى ظاهرة أخرى خطيرة هي اللجوء البيئي، أي بسبب تغيرات مناخية وبيئية من جفاف وتصحر، وهي الظاهرة التي بدأت تتحقق فعلياً ويبدو أنها إلى زيادة، ما يثقل حمل سياسات الإدماج والتعامل مع المهاجرين واللاجئين الفارين من صراعات كثيرة. لكن الصراعات ليست وحدها

التي تدفع أسراً إلى الشعور بالتهديد والخوف، فأخضاع مناطق أو أحياء لعمليات تطوير أو تنمية من دون علم سكانها أو درايتهم أو وعيهم، كثيراً ما يتسبب في قلاقل بصراعات. ويذكر كلوس أن «هايبات» تؤمن بحتمية إشراك السكان في أي عمليات تطوير، ف«من يرى السكان أن مبالغ ماله ضخمة تضح في مكان سكنهم يرفعون على الفور رايات الشكوى وجود أجناس خفية من وراء لتطوير». وفي نظره، فإن الحس الوحيد «أن تتسم عمليات التطوير بقدر كبير من الشفافية والصراحة والمشاركة»، لا سيما أن التاريخ الحديث يؤكد لنا أن عمليات تطوير حضري عدة وتنمية مدن جرت في معزل عن السكان، أدت إلى قدر أكبر من المشكلان».

وفي شأن الفقر الذي يضرب مدناً عربية حتى بان قبورها لصيقاً بفقرها، طرح كلوس وجهة نظر مغايرة سائلاً: «من قال أن القبح هو الوجه الآخر للفقر؟ ومن قال أن بيوت الفقراء وتجمعاتهم في الحضر يجب أن تكون أليمة؟ هناك دائماً رؤى ومخططات قابلة للتنفيذ لبناء تجمعات سكنية جميلة بموارد قليلة ومواد محلية، وهناك نماذج في دول كثيرة تعد من أفقر بلدان العالم. لكن المشكلة تبقى في محاولات بعض السيطرة على الأرض على حساب الفقراء».

لكن في مدينة مثل القاهرة حيث تراكمات مشكلات الماضي والحاضر، بدءاً بالتوسع غير المدروس والهجرة الداخلية العاتية من القرى ومدن أخرى، مروراً بالبناء من دون أدنى



لا يمكن ملؤه. لذا ننصح دائماً بإجراء عمليات تحليل معمقة للتأكد من إمكان إصلاح العاصمة القاهرة برمتها وبناء عاصمة جديدة من الألف إلى الياء أم إصلاح الموجود؟ يشدد كلوس على أنه «من الأفضل الإبقاء على الصدن الراهنة مع إصلاحها إذا كان ذلك ممكناً، لأن نقل العاصمة يعني ضرورة خلق مدينة جديدة بخدماتها ومبانيها ومواردها البشرية والمادية من جهة، ما يترك في العاصمة القديمة خواء

حية وليست أجساماً مع الوقت وتنشأ للوهن أحياناً. مراحل النمو والتي تبقى تمر بها وتناغم وربما وإهمال المدن ومعها يتحلل في الوقت عينه وفي مقدور ميجاباً أو سلبياً

وتنصيح دائماً بإجراء عمليات تحليل معمقة للتأكد من إمكان إصلاح العاصمة القاهرة برمتها وبناء عاصمة جديدة من الألف إلى الياء أم إصلاح الموجود؟ يشدد كلوس على أنه «من الأفضل الإبقاء على الصدن الراهنة مع إصلاحها إذا كان ذلك ممكناً، لأن نقل العاصمة يعني ضرورة خلق مدينة جديدة بخدماتها ومبانيها ومواردها البشرية والمادية من جهة، ما يترك في العاصمة القديمة خواء